(3)

الكمال المعنويّ للإنسان في ضوء العقلانيّة الإسلاميّة

محمد عدنان محسن الربيعي[1]

الخلاصة

يعدّ موضوع الروحانيّة والبعد المعنويّ من الأبحاث المهمّة المعاصرة، إذ تحظى باهتمامٍ كبيرٍ في العالم المعاصر، ولمّا كان البعد المعنويّ ركنًا ركينًا في وجود الإنسان، ومن المسائل الّتي لا تقبل الشكّ والترديد، فإنّ الإسلام يثبته وتؤكّد على صحّته العقلانيّة الإسلاميّة.

إنّ المعنويّة عبارةٌ عن نزعةٍ ماورائيّةٍ وغير مادّيّةٍ، تُضفي على الحياة اليوميّة والمادّيّة للإنسان معنًى جديدًا يفوق المعنى المادّيّ والعاديّ. وعلى ضوء العقلانيّة الإسلاميّة تتميّز المعنويّة بمجموعةٍ من الخصائص والمميّزات المهمّة بحيث يؤدّي عدم الاهتمام بها إلى مجموعةٍ من الأضرار والنتائج الوخيمة.

من هنا تسعى هٰذه المقالة نحو إلقاء نظرةٍ على هٰذه المسألة الحسّاسة؛ مسألة المعنويّة والروحانيّة، بحيث تحاول مقاربتها وتقديم عرضٍ عن مختلف مميّزات المعنويّة على ضوء العقلانيّة الإسلاميّة، وذٰلك من خلال منهجٍ تحليليٍّ

---

(1) الدكتور محمد عدنان محسن الربيعي، العراق، مدرّسٌ في قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة المصطفى العالميّة.

rbeyy91@yahoo.com

وتوصيفيٍّ ومقارنٍ.

الكلمات الدلاليّة: المعنويّة، العقلانيّة، الكمال الإنسانيّ، الإسلام، الروحانيّة.

The Moral Perfection of the Human Being in the light of Islamic Rationality

Dr. Muhammad Adnan Muhsin al-Rubaie [1]

Abstract

The topic of spirituality and its moral dimensions is one of the important contemporary studies, as it receives great attention in the contemporary world. This is because the moral element is a cornerstone of human existence, and among the issues that cannot accept doubt and hesitation. Islam also confirms this and affirms its validity of Islamic rationality.

Spirituality is a metaphysical and non-material tendency, which conferred on the daily and material life of the human being a new meaning that goes beyond the material and ordinary one. In light of Islamic rationalism, the spiritual is distinguished by a set of important characteristics and advantages, such that lack of interest in it leads to a set of damages and disastrous consequences.

Hence, this article seeks to look at this sensitive issue. The issue of morality and spirituality, so that it tries to approach it and give a presentation on the various characteristics of the spirituality in light of Islamic rationalism, through an analytical, descriptive and comparative approach.

Key words: moral, rationality, human perfection, Islam, spirituality.

---

[1] - Lecturer at the Department of Interpretation and Qur'an Sciences, Al-Mustafa International University, Iraq.

Email: rbeyy91@yahoo.com

المقدّمة

لا شكّ في أنّ البُعد المعنويّ والروحيّ(1) يمثّل عنصرًا أصيلًا في روح الإنسان، وأنّ هٰذا الأخير مهما أعرض ونأى بجانبه غافلًا عن هٰذا البعد، مقبلًا بزيادةٍ مطّردةٍ نحو المادّيّات، فإنّه لن يُطفئ تلك الجذوة المتّقدة في داخله، فالبشريّة في هٰذا العصر، ومع التقدّم العلميّ على الأصعدة كافّةً، والغرق في المادّيّات، تشعر بظمإٍ كبيرٍ وماسٍّ إلى المعنويّات، وقد أخذ هٰذا الشعور يتزايد في الآونة الأخيرة، بحيث يمكن ملاحظة ذٰلك من خلال اهتمامات المفكّرين والملتقيات والمؤتمرات الّتي تُعقد هنا وهناك، والمؤلّفات الّتي تصدر بشكلٍ متزايدٍ حول هٰذا الموضوع. وعلى هٰذا الأساس يمكن القول: إنّ البشريّة، بعد النهضة والحداثة في الغرب، تسعى إلى العودة إلى هٰذا الاتّجاه (المعنويّة)، وذٰلك بعد أن أدركت أنّ مسألة المعنويّة ترتبط مباشرةً بسعادة الإنسان، وأنّ تلبية الحاجات المادّيّة والحيوانيّة له، لا يسدّ حاجته إلى المعنويات [آهنگران، عقلانيت و علم : معيار تمايز معنويت در اسلام از معنويت در ساير مكاتب، ص 3]؛ ولذا فقد أدركت البشريّة المعاصرة ـ ولو بشكلٍ طفيفٍ ـ ضرورة العودة إلى المعنويّة. [آزاد علي إسماعيل، الدين والصحّة النفسيّة، ص 33؛ ملكيان، التديّن العقلانيّ، ص 130]

كان الإنسان المعاصر وما زال يواجه الكثير من الأزمات، ومن بينها نزاع العلم والدين، وأزمة المعنويّة وظهور التيّارات العرفانيّة المنحرفة والكاذبة والشكّاكيّة واللأدريّة، وأزمة الافتقار إلى المعرفة اليقينيّة، وجذور هٰذه الأزمات تعود إلى فصل المعرفة عن المعنويّة، فنزعُ رداء المعنويّة والقداسة

---

(1) يستخدم في الموسوعات والقواميس مصطلح "روحانيّ" أو "روحانيّة" تعبيرًا آخر عن "المعنويّة". انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، ص 1326 .

عن المعرفة في الفكر الغربيّ واستبدال المعرفة اليقينيّة بالنسبية في المعرفة، من خلال تيّارات من قبيل التاريخيّة والتطوّريّة والعلمويّة، كلّ ذٰلك أدّى إلى هٰذه الأزمات. [قاسمي، تحليل و تبيين معرفت قدسي نزد سيد حسين نصر،، ص 98]

لقد طرح بحث المعنويّة عند الإنسان العلمانيّ الغربيّ والعقلانيّة الأداتيّة، انطلاقًا من سؤالٍ حول معنى المعنى، وفائدة الفائدة للمشروعات القائمة. وبعبارةٍ أخرى: فقد تمّ التساؤل عن المعنى الأقصى والنهائيّ والقيمة، وبما أنّ السؤال عن "معنى الوجود" في هٰذه العقلانيّة الأداتيّة قد تمّ قبره في طيّ النسيان وإحالته إلى عُهدة الإيمان القديم، فإنّ الإنسان الغربيّ كان بحاجةٍ إلى تقديم أطروحةٍ تنسجم مع مشروعه العلمانيّ، ومن هنا فقد طرح بحث المعنويّة والروحانيّة والتعالي والقُدسيّ وغيرها. [جميل قاسم، الروحانيّة في العلمانيّة المعاصرة، ص 120]

وقبل الشروع في البحث تجدر الإشارة إلى أنّ موضوع العقلانيّة والمعنويّة في المنظور الإسلاميّ واسعٌ جدًّا؛ وذٰلك نتيجة الأسس والمباني الّتي يقوم عليها، سواءٌ ما ارتبط بالعقلانيّة الإسلاميّة الّتي لها تقوم على أسسٍ ومبانٍ وميزاتٍ خاصّةٍ، أو ما تعلّق ببحث المعنويّة الّذي يزخر بالعمق والتنوّع ويتميّز بمجموعةٍ من الخصائص والمعاني العالية وفق نظام الفكر الإسلاميّ. وعلى هٰذا الأساس، انتظم هٰذا البحث بغرض رسم صورةٍ عامّةٍ عن الروحانيّ والكمالات المعنويّة للإنسان على ضوء العقلانيّة الإسلاميّة.

أ ـ تعريف المعنويّة

عُرّفت "المعنويّة" لغويًّا بأنّها: مصدرٌ جعليٌّ أصله من الفعل "عني" بفتح العين والنون، ومنه: عنيت بالقول كذا، أي أردتُ وقصدتُ ذٰلك،

و"المعنويّ" المنسوب إلى المعنى. [الجوهريّ، الصحاح، ج 6، ص 2440؛ الفيوميّ، المصباح المنير، ج 2، ص 85 و86]

وعُرّف "المعنويّ" اصطلاحًا بأنّه: ما لا يكون للّسان فيه حظٌّ، وإنّما هو معنًى يُعرف بالقلب. [المناويّ، التوقيف على التعاريف، ج 1، ص 667]

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعاريف الموجودة في المعاجم اللغويّة والأدبيّة الإسلاميّة لهٰذه المفردة، قليلةٌ جدًّا ولا تفي بتقديم تعريفٍ دقيقٍ لهٰذا الاصطلاح الجديد الّذي اعتُبر معادلًا للمفردة الإنجليزيّة "spirituality"، بل إنّ هٰذه المفردة نفسها ليس لها في اللغة الإنجليزيّة معنًى واضحٌ تمامًا، وهي يكتنفها الكثير من الغموض نتيجة التغييرات العديدة الّتي تعرّضت لها. [ايزدپناه، ضرورت نگاه تمدنی به مفهوم معنويت ، ص 124]

ومن هنا فقد أدّى الخلط في هٰذه المفردة إلى تفشّي المعنويات الزائفة في الغرب حتّى لم يعد من سبيلٍ إلى فهم ما يمكن أن تقدّمه المدارس الحقّة لإنقاذ الإنسان من وعثائه من دون تنظيف الأرض من الخطل وسوء الفهم. [نصر، الإسلام ووعثاء الإنسان الغربيّ الحديث، ص 89]

وعلى أيّ حالٍ فإنّ المراد من المعنويّة "spirituality" هنا أنّها عبارةٌ عن نزعةٍ ماورائيّةٍ وغير مادّيّةٍ، تُضفي على الحياة اليوميّة والمادّيّة للإنسان معنًى جديدًا يفوق المعنى المادّيّ والعاديّ. [آزاد علي إسماعيل، الدين والصحّة النفسيّة، ص 32 ـ 38]

وأمّا مفهوم "المعنويّة" على ضوء الرؤية الإسلاميّة وانطلاقًا من الفضاء الفكريّ الإسلاميّ، فيكتسي لونًا مغايرًا عمّا هو مطروحٌ في الثقافات الغربيّة. فإذا كانت المعنويّة الدينيّة عبارةً عن ذٰلك الشعور الّذي يعتري الإنسان فيما يرتبط بالحقائق الّتي تقع في أفق أوسع من نطاق عالم المادّة، ويقتضي القيام بمجموعةٍ من الوظائف من أجل بلوغه، فإنّه لا مجال

للحديث عن مسألة الوظائف والتكاليف في المعنويّة الّتي تطرحها الحداثة والثقافة الأوربّيّة مطلقًا، فكلّ تجربةٍ عاطفيّةٍ أو جذبةٍ روحيّةٍ شديدةٍ نحو أيّ موضوعٍ قد تندرج ضمن نطاق المعنويّة. والمهمّ فيها أن يثار الفرد ويشعر بالتعالي والتفوّق ويحسّ بالعظمة. [ايراندوست، چيستى معنويت و سير معناپذيرى آن در غرب ، ص 540]

وعلى الرغم من أنّ هٰذه المفردة قد نحتت حديثًا في الفضاء المعرفي الإسلاميّ المعاصر، إلّا أنّها كانت موجودةً في الثقافة الإسلاميّة العريقة تحت عناوين وأسماءٍ أخرى، فقد جاء في كتاب "المعنويّة الإسلاميّة" ما يلي: «لم تأتِ مفردة المعنويّة في القرآن والروايات بهٰذا النحو، ولٰكن من خلال الرجوع إلى معناها اللغويّ يمكن القول: المراد منها هو عالم الباطن وحقيقة وروح العالم المادّيّ والظاهريّ، وأفضل مفردةٍ قرآنيّةٍ قريبةٍ منها هي "الحياة الطيّبة والنور الإلٰهي» [الهامي نيا، المعنويّة الإسلاميّة، ص 21].

هٰذا ولقد أطلقت المعنويّات على مجموعة الأمور المتحقّقة الّتي ليست من جنس المادّة والمادّيّات، وبالتالي فإنّها تقع في النقطة المقابلة لها [مطهري، الإنسان الكامل، ص 69]، وقد عُدّ الإنسان المعنويّ مَنْ يهتمّ عمليًّا بالأمور غير المادّيّة المؤثّرة في حياته. [ايزدپناه، ضرورت نگاه تمدنى به مفهوم معنويت، ص 138]

ب ـ أوجه الاختلاف بين معنويّة الحداثة والمعنويّة الدينيّة

إنّ المعنويّة الّتي تطرح في الحداثة والثقافة الغربيّة ترتكز على مسألةٍ أساسيّةٍ وهي الاعتقاد بالقوى الخارقة والغيبيّة من أجل بلوغ الطمأنينة وإضفاء معنًى على الحياة. ومع ذٰلك فإنّ بينها وبين المعنويّة الدينيّة اختلافين رئيسيّين هنا:

أوّلًا: الاختلاف في المنهج، فالمعنويّة الدينيّة، علاوةً على العقل فإنّها تنتفع من الوحي الإلٰهيّ والإيمان الدينيّ في معرفة المعنويّة وكيفيّة بلوغها؛ أمّا معنويّة الحداثة فإنّها لا تستقي هويّتها إلّا من خلال العقل المستقلّ، ولا يطرح الوحي الإلٰهيّ والإيمان الدينيّ باعتبارهما منهلًا تنهل منه حقيقتها.

ثانيًا: الاختلاف في المنشإ، فمنشأ ظهور معنويّة الحداثة، هو الشروط الخاصّة والظروف الاجتماعيّة. فمسائل من قبيل أزمة الهويّة، وأزمة الأخلاق، وأزمة المحيط البيئيّ، وأزمة الأسرة، جرّت الإنسان المعاصر نحو المعنويّة حتّى ينال الشعور بالاطمئنان الّذي فقده إلى جانب رفاهيّة الحداثة. وفي قبال ذٰلك فإنّ المعنويّة الدينيّة تسعى وراء صناعة عالمٍ معنويٍّ للبشر ينال فيه الطمأنينة والرفاهية من دون أزمات الهويّة والأخلاق والبيئة وغيرها. وعلاوةً على ذٰلك فإنّ إحدى أعمدة المعنويّة في الحداثة هي أنّها ترتبط بالآن من هٰذه الحياة الدنيا وبالوقت الحاليّ من أجل حياةٍ أفضل وبلوغ الاطمئنان والخلاص من الألم، لا تهتمّ بما وراء هٰذه الموت وما يجري على الإنسان من حوادث ووقائع. [إيراندوست، چيستى معنويت و سير معناپذيرى آن در غرب ، ص 543]

ج ـ مميّزات المعنويّة في ضوء العقلانيّة الإسلاميّة

تُعدّ حاجة الإنسان إلى المعنويّة والروحانيّة من المسائل الّتي لا تقبل الشكّ والترديد، وهٰذا ممّا يثبته الإسلام وتؤكّد صحّته العقلانيّة الإسلاميّة. [مصباح يزدي، محاولةٌ للبحث عن العرفان الإسلاميّ، ص 32]

وبناءً على هٰذا يمكن عرض بحث المعنويّة انطلاقًا من العقلانيّة الإسلاميّة في شكل محاور على النحو التالي:

1ـ البُعد العقلانيّ للمعنويّة

إنّ المعنويّة بوصفها أمرًا قدسيًّا تقوم ـ في الفكر الإسلاميّ ـ على مجموعةٍ من الأسس والمباني المنطقيّة والعقليّة، وتتّضح أهمّيّة هٰذا الأساس بملاحظة بقيّة أنواع المعنويّة الّتي تنتشر في مختلف أنحاء العالم في العصر الراهن، حيث يمكن ترتيبها وفق ما يلي:

اتّجاه المعنويّة المحضة: يقوم هٰذا الاتّجاه على الأسس العاطفيّة والأحاسيس، ولا يرتبط بالأمور المعرفيّة والعقليّة، فالأحاسيس والمشاعر والعواطف ـ في رؤية هٰذا الاتّجاه ـ تجعل الإنسان يشعر بالسرور والبهجة، لٰكنّها لا ترجع إلى أساسٍ معرفيٍّ وعقليٍّ. [ملكيان، المعنويّة والمحبّة خلاصة كلّ الأديان، ص 56]

اتّجاه المعنويّة الوهميّة: وهٰذا الاتّجاه يقوم على أسسٍ وهميّةٍ وخرافيّةٍ، وعلى الدجل والزيف، وبالتالي هي أيضًا ليس لها أيّ أساسٍ عقليٍّ أو برهانيٍّ، وإنّما تعتمد على الخرافات والأوهام والشعوذة وأمثالها.

اتّجاه المعنويّة المؤسّس على العقلانيّة: وهٰذه المعنويّة تنزع نحو عالم القُدس وتقوم على أسسٍ فلسفيّةٍ ومبانٍ وقواعد تجعل من المعنويّة أمرًا معقولًا مبرهنًا. [آهنگران، عقلانيت و علم : معيار تمايز معنويت در اسلام از معنويت در ساير مكاتب ، ص 6 و7]

إنّ الروحانيّة ـ وكما يطرحها الإسلام ـ ليست حالةً انفعاليّةً أو عاطفيّةً، بل هي حضور الإنسان كلّه جسمًا وعقلًا وعاطفةً، فهي تتناقض مع الحالات العاطفيّة والانفعاليّة الّتي يغيب فيها العقل؛ لأنّ غياب العقل يعني تفشّي الفوضى، وهٰذا ما يتناقض جذريًّا مع الروحانيّة التي شرّعها الله تعالى، فالعقل يؤدّي دورًا حيويًّا على درجةٍ عاليةٍ من الأهمّيّة في البُعد المعنويّ للإنسان، حيث وَرَدَ ذٰلك صراحةً في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس: 100].

والمعنويّة القائمة على العقل هي الّتي أكّد عليها الإسلام، بل الأديان الإبراهيميّة جميعًا، حيث تتجلّى في الأخلاق والعرفان العمليّ معجونةً مع الرؤى المعرفيّة والعقليّة، وهٰذه الرؤية القدسيّة قائمةٌ على أسسٍ فكريّةٍ وفلسفيّةٍ برهانيّةٍ، بل قد ترتبط المعنويّة عند البعض بالعرفان النظريّ الّذي يتأسّس على أبعادٍ برهانيّةٍ عند أصحابه.

وعلى هٰذا الأساس يرى الشهيد محمّدباقر الصدر أنّ المفاهيم والقيم الأساسيّة المتعلّقة بالمعنويّة توجد في شكل نسقٍ ينتمي إلى المنظومة الإسلاميّة العامّة، الّتي لا تفصل بين الدين والدنيا، وهٰذا النسق لا يقلّ صرامةً ـ من الناحية العقلانيّة ـ عن النسق العلميّ، بل إنّ صرامته أقوى وأعمق؛ لأنّه يحدّد علاقاتٍ قدسيّةً وروحيّةً، لها امتداداتٌ اجتماعيّةٌ وسياسيّةٌ تتأثّر في العلاقة بين الإنسان والله تعالى.

وانطلاقًا من هٰذه الفكرة يتجلّى موقف الإسلام من المعنويّة؛ إذ إنّه ليس موقفًا عاطفيًّا أو روحيًّا محضًا، بل هو ينتمي إلى أرضيّةٍ فكريّةٍ تحدّد الرؤية الإسلاميّة للكون والإنسان والأمّة وعلاقتها بالشعوب الأخرى وبالتاريخ. [الصدر، موجزٌ في أصول الدين (ملامح عامّةٌ للعبادات)، ص 270]

2ـ الهيكلة والنظم

تعدّ المعنويّة أمرًا محوريًّا ونواةً مركزيّةً في الإيمان والنزوع نحو عالم القدس؛ إذ إنها تشكّل ـ مع مجموعةٍ من المعارف والقضايا والمسائل الأساسيّة، وكذٰلك مع النتائج والثمرات ـ منظومةً متكاملةً ومنسجمةً، ويمكن ملاحظة ذٰلك في الأخلاق والعرفان العمليّ، إذ يمكن أن يشاهد بوضوحٍ هٰذه الهيكليّة والمنظومة الّتي تهتمّ بالشخصيّة المعنويّة وتربيتها

مفاهيميًّا وعمليًّا، وهٰذه مسألةٌ مهمّةٌ للغاية وذٰلك بغرض الرجوع إليها، فالحياة برمّتها منظّمةٌ.

وممّا لا شكّ فيه أنّ المذاهب الفلسفيّة قد صاغت علاقة الإنسان بالمطلق ضمن نظريّاتها الميتافيزيقيّة، لٰكنّ الإسلام نظّم علاقة الإنسان بالمطلق، ولم يتركها على عموميّتها تنزلق في متاهات الفكر المجرّد والتخمينات الميتافيزيقيّة، فتشريع العبادات يتضمّن أنّه لا يمكن للإنسان أن يرتبط بالمطلق إلّا عن طريق الدين، ونسبيّة الإنسان تجعله كائنًا مفتقرًا إلى الله سبحانه وتعالى، فالمعنويّة والروحانيّة الّتي تتمّ فيها صياغة الرؤية الإسلاميّة للمشكل الميتافيزيقيّ من الناحية المنهجيّة والمعرفيّة. وهو ما سيأتي تفصيله لاحقًا.

فلا يمكن لمفاهيم وأحكامٍ وقيمٍ دقيقةٍ كتلك الّتي ترتبط بالمعنويّات والروحانيّات أن توجد مبعثرةً وعفويّةً دون نظريّةٍ ـ ضمنيّةٍ ـ تتّسق ضمنها تلك المفاهيم والأحكام والقيم.

3ـ عالم الغيب وعالم ما وراء المادّة

مع أنّ الكثير من تيّارات المعنويّة في هٰذا العصر تعدّ المعنويّات أمرًا ضروريًّا، إلّا أنّها تحصرها في نطاق المادّة والعالم المادّيّ للإنسان فحسب [آهنگران، عقلانيت و علم : معيار تمايز معنويت در اسلام از معنويت در ساير مكاتب ، ص 9]، بينما يتوجّب إثبات ذٰلك وأنّ العالم لا ينحصر في عالم المادّة؛ إذ إن هنالك عوالم غيبيّةً كثيرةً، ومن دون إثبات ذٰلك لا يمكن الحديث عن المعنويّة.

ومن بين الأمور الأساسيّة في هٰذا المجال:

أوّلًا: الإنسان له روحٌ وليس هو مادّةً فحسب.

ثانيًا: العالم ليس مادّيًّا وحسب، بل هناك غيبٌ وما وراء المادّة.

وعلى هٰذا الأساس فعلاوةً على الروح الّتي يؤكّد عليها الإسلام، فإن هناك مسألة الغيب؛ إذ إنّ هناك غيبًا واستمرارًا لهٰذا العالم، ويمكن ملاحظة ذٰلك من خلال تأكيد النصوص الدينيّة على مسألة المعاد [جوادي آملي، دور المعاد في تربية الروح، ص 8]؛ باعتبار أنّ هناك استمرارًا لهٰذه الحياة، وهنالك وما وراء لها.

إنّ الأصول والقواعد التوحيديّة والمَعاديّة تُشكّل نواةً مركزيّةً بالنسبة للمعنويّة، ومن دونهما تضحي المعنويّة مهزلةً وهوًى ليس إلّا.

فالمعنويّة على ضوء تلك الأصول، مسألةٌ أساسيّةٌ وواقعيّةٌ وحقيقيّةٌ تتجلّى في جميع الأتباع الّذين ساروا على هدى الإسلام في مختلف الأفراد الّذين ظهروا على مرّ العصور والأزمان.

إنّ الروحانيّة والبُعد المعنويّ في الإسلام مع أنّه يتحرّك في اتّجاه الغيب، إلّا أنّه لا يغفل الواقع، بل يرتبط به، وإنّ عدم ارتباط الإنسان بالغيب سيحوّله إلى صيرورةٍ مستمرّةٍ تائهةٍ، ويجعل تحرّكه عشوائيًّا كريشةٍ في مهبّ الريح، بينما إذا ارتبط به وتحرّك في مسيرته الشاقّة الطويلة، فإنّه سيستمدّ من إطلاقه وشموله العون والمدد والرؤية الواضحة للهدف، فالإنسان يهفو إلى المطلق، ويربط من خلال ذٰلك حركته بالكون وبالوجود برمّته، بالأزل والأبد [حبيب فياض، التجديد الكلاميّ عن الشهيد الصدر، ص 150]، كما أنّ الارتباط بالغيب وبالله يستوعب تطلّعات المسيرة كلّها، وهو رفضٌ لكلّ المطلقات الوهميّة والخرافيّة، إنّه خوض غمار معركةٍ مستمرّةٍ، ونضالٌ ممتدٌّ ضدّ مختلف الأكاذيب والأوهام والوثنيّات المصطنعة، وبهٰذا يتحرّر الإنسان من سراب المطلقات الكاذبة الّتي يجعلها الإنسان الواهم والضالّ بديلًا عن الحقيقة المطلقة وهي ربّ العالمين. [الصدر، موجزٌ في أصول الدين

(ملامح عامّةٌ للعبادات)، ص 270]

4ـ التبلور في إطار مناسك وشعائر منتظمةٍ

لقد تبلورت المعنويّة والروحانيّة في الفكر الإسلاميّ على شكل مناسك وشعائر منتظمةٍ، وتتجلّى هٰذه المسألة بوضوح إذا ما رأينا أنواعًا أخرى من المعنويّة منها: المعنويّة الّتي تنحصر في الأمور القلبيّة فحسب، ولا ترتبط بما وراء ذٰلك من تجلّياتٍ وتمثيلاتٍ أخرى لها؛ والمعنويّة الّتي تركت تجلّياتها وتمثيلاتها وقوالبها بصورةٍ حرّةٍ منفلتةٍ.

وأمّا المعنويّة الإسلاميّة فهي الّتي تتمثّل في إطار مناسك وشعائر معيّنةٍ، وهو ما يعرضه الفكر الإسلاميّ، إذ إنّ مساحة هٰذه المناسك والشعائر واسعةٌ جدًّا فيه.

إنّ الروحانيّة والمعنويّة تُطلق ـ كما ذكر سابقًا ـ على ما يقابل المادّيّ والجسمانيّ، ولا يعني ذٰلك أنّ المراد منها هو البعد التجريديّ، وإن كان ذٰلك جزءًا من حقيقتها، وإنّما المراد ذٰلك البُعد المعنويّ وتلك الحالة النفسيّة الّتي تمثّل الحقيقة المطلوبة من وراء الأشياء، فالصلاة بأركانها المخصوصة لها روحانيّةٌ وراء صورتها وهيئتها، وسائر العبادات هي على هٰذا المنوال، ومن دون ذٰلك لا يمكن أن تتحقّق تلك المعنويّات على أشكالها وصورها الصحيحة. [الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصلاة، ص 17]

ومن هنا فإنّ تلك الصور والقوالب تكتسي أهمّيّةً خاصّةً في الرؤية الإسلاميّة، فشكل العمل والسلوك له علاقةٌ وطيدةٌ بالعواطف والإحساسات الّتي تقابله، ووفق هٰذه الرؤية لا يمكن التأكيد على العواطف والإحساسات والتخلّي عن القوالب والشعائر والمناسك؛ وذٰلك لوجود علاقةٍ متقابلةٍ بين العواطف والإحساسات مع السلوكيّات والقوالب والنماذج والشعائر، وبما

أنّ هٰذه العلاقة المتقابلة والمترابطة موجودةٌ في نظام الشريعة، فقد بُيّنت وأوضحت أطرٌ وحدودٌ معيّنةٌ ومشخّصةٌ لهٰذه الإحساسات والعواطف في الشريعة.

وتبلورُ الروحانيّة في الرؤية الإسلاميّة في قوالب وأشكالٍ معيّنةٍ لا يعني عدم الاهتمام بالمحتوى، فالمحتوى فيها هو مقدار ما يتوصّل إليه الإنسان من مراتب الكمالات الإلٰهيّة والقرب من الله تعالى.

ومن هنا يظهر تهافت قول من قالوا بأنّ القالب هو بمثابة القشر وأنّ المحتوى هو اللبّ، ومتى ما تمّ بلوغ اللبّ أمكن التخلّي عن القشر، وبطلان اعتقاد من شدّد على التمسّك المفرط بالقالب، وعلى التركيز عليه، فالله يحب أنْ يُعبد من حيث يريد هو لا من حيث يريد العبد، فمثلما أنّ القالب مهمٌّ فإنّ المحتوى مهمٌّ أيضًا، فقد جاء في الرواية: «بينا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد إذ دخل رجلٌ فقام يصلّي فلا يتم ركوعه ولا سجوده، فقال ﷺ: نقرٌ كنقر الغراب، لئن مات هٰذا وهٰكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني» [الكلينيّ، الفروع من الكافي، ج 3، ص 268، ح 6].

وجديرٌ بالذكر أنّ هٰذه المسألة لا تقتصر على الرؤية الإسلاميّة فحسب، بل تشمل الأديان الإبراهيميّة كافّةً؛ إذ إنّها تتوفّر على المناسك والشعائر والطقوس الّتي تعكس الإحساسات والعواطف فيها، وفي هٰذا المجال يمكن الإشارة إلى مجموع المناسك والعواطف الّتي تعكس تلك العواطف والإحساسات القدسيّة والمعنويّة، والأدعية والمناجات ونصوص الزيارات نموذجٌ لذٰلك، إذ إنّ هناك المئات من الأدعية والمناجات الموجودة في النصوص والمصادر الدينيّة، والّتي تتّصف بالروعة والجاذبيّة، بحيث إنّها تفتح أمام الإنسان طريقًا مستقيمًا لحوارٍ مباشرٍ مع الله، ومن ذٰلك ما يمكن ملاحظته في أدعية الصحيفة السجّاديّة ومفاتيح الجنان والأدعية الواردة في كتبٍ

أخرى.

فالقرآن الكريم يقرّ أنّ الدعاء هو طريق ارتباط العباد بالله ﷻ حيث يقول تعالى: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [سورة غافر: 60]. فالدعاء ليس سبيل النجاة وحسب، بل هو أيضًا سبيل الترقّي المعنويّ والوصول إلى المراتب العليا من الكمال. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إِنَّ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ، وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا سَدَّ فَاهُ وَلَمْ يَسْأَلْ لَمْ يُعْطَ شَيْئًا، فَاسْأَلِ تُعْطَ» [الكلينيّ، الكافي، ج 2، ص 466].

إنّ الدعاء والمناجاة والارتباط بالبعد المعنويّ والغيبيّ أمرٌ ضروريٌّ، فالعقل يقضي بأنّه لا حيثية ولا حقيقة للإنسان سوى العبوديّة لله والارتباط به. وممّا لا شكّ فيه أنّ الدعاء له تأثيره التامّ في فلاح الإنسان وسعادته، فهو الحبل الوثيق الّذي يربط وجود الإنسان وسعادته ـ الّذي هو عين الفقر والعجز ـ بمعدن الغنى والقدرة، وينتشله من ورطة البأس والضياع، ويملأ وجوده وكيانه من نور الكمالات المعنويّة على قدر سعته وطاقته. ثمّ يطلق له عنان الرقيّ، لينفكّ من أسر التراب ويحلّق نحو ربّ الأرباب.

علاوةً على ذٰلك فإنّ المناجاة والأدعية عند أهل البيت عليهم السلام تتضمّن جانبًا مهمًّا آخر، وهو تعليم الناس ماذا يطلبون وما هو أدب الطلب من الله تعالى. [مجموعةٌ من المؤلفين، المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ، ص 446]

ومن الأمور الّتي تلعب دورًا مهمًّا في بلورة البعد المعنويّ للإنسان مسألة التوسّل. حيث إنّ حقيقته تتضمّن عناصر معرفيّةً وعاطفيّةً مهمّةً. من بينها التعرّف على النموذج المثاليّ والملموس الّذي يتوجّب الاحتذاء به، وعنصر المحبة والعشق الّذي يبعث في روح الإنسان زخمًا وحيويّةً وطاقةً عظيمةً نحو الحركة والفاعليّة نحو الهدف. فمجرّد تحديد الإنسان لهدفه لا يعني عدم افتقاره إلى الطاقة الروحيّة والعزيمة اللازمة للمسير باتّجاه الهدف. ومتى ما

اقترنت المعرفة الصحيحة للنموذج القدوة بالمحبّة العميقة الصافية، فحينئذٍ يضحي احتمال التأسّي كبيرًا جدًّا.

5ـ الامتداد الاجتماعيّ والثقافيّ والسياسيّ للمعنويّة

لا تنحصر المعنويّة وفق الرؤية الإسلاميّة في البعد الفرديّ للإنسان، وإنّما لها ارتباطٌ مع سائر أبعاد الإنسان الأخرى؛ إذ إنّ المعنويّة ليست عنصرًا منفصلًا ومنعزلًا عن سائر الأبعاد الأخرى للإنسان. وبعبارةٍ أخرى: إنّ المعنويّة في الرؤية الإسلاميّة لا تقتصر على البعد الفرديّ للذات البشريّة، وإنّما تتجاوزها لتدفع بالإنسان إلى الاهتمام بالأبعاد الإنسانيّة الأخرى، ومن أجل هدفٍ أكبر من وجوده ومصالحه الخاصّة.

ولقد تنبّهت الكثير من الاتجّاهات المعنويّة إلى هٰذه المسألة، وهي أنّ قيمة المعنويّة تكمن في مدى قدرتها على تسليط الضوء على الزوايا والأبعاد الأخرى للحياة الفرديّة والاجتماعيّة؛ إذ يمكنها في الكثير من الموارد حلّ المشكلات الّتي تعاني منها البشريّة.

فالروحانيّة متعدّدة الأبعاد، ومن هنا تتجلّى خصوصيّتها في الرؤية الإسلاميّة؛ ذٰلك أنّ أنواع الروحانيّات الأخرى من بوذيّةٍ ومسيحيّةٍ وغيرها، روحانيّاتٌ مريحةٌ وانسحابيّةٌ (أي منعزلةٌ عن المجتمع)، بينما المعنويّة والروحانيّة في الإسلام، روحانيّةٌ متجذّرةٌ في الحياة الاجتماعيّة، وهي انطلاقةٌ إيمانيّةٌ تشمل الحياة كلّها؛ ولذا فهي تجعل الإنسان يعيش حالة الالتزام بقضايا المجتمع، ووعيٍ بحركة التاريخ. [محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر، ص 121 و122]

وعلى ضوء ذٰلك، تسلّط المعنويّة ـ باعتبارها نواةً مركزيّةً في الرؤية الإسلاميّة ـ الضوء على مختلف الأبعاد البشريّة، الفرديّة والأسريّة

والاجتماعيّة والثقافيّة وغيرها.

لقد اشتهر ذٰلك الصراع التاريخيّ المحتدم الّذي دار بين أتباع الطريقة وأتباع الشريعة، وقد كان النزاع فيه قائمًا بين من يؤكّد على العناصر المعنويّة الّتي تغلب على الجانب الفرديّ وهم أتباع الطريقة، وبين من يذهب إلى ضرورة الاهتمام بالشريعة وقوانينها ومقرّراتها.

ولٰكن كانت الرؤية الغالبة هي أنّه لا يمكن الاستغناء عن كليهما، فالأحكام والقوالب الظاهريّة كافّةً تمتلك روحانيّةً ومعنويّةً عميقةً، ففي كلّ حكمٍ شرعيٍّ تكمن روح التوحيد ولا يمكن الوصول إليه إلّا من خلال التعمّق فيه [يزدان پناه، العرفان النظريّ.. أصوله ومبادؤه، ص 100]، ويشير الشيخ الرئيس إلى هٰذا الأمر في النمط التاسع من الإشارات بقوله: «لمّا لم يكن الإنسان بحيث يستقلّ وحده بأمر نفسه إلّا بمشاركة آخر من بني جنسه، وبمعاوضةٍ ومعارضةٍ تجريان بينهما، يفرّغ كلّ واحدٍ منهما لصاحبه عن مهمٍّ لو تولّاه بنفسه لازدحم على الواحد كثيرٌ، وكان ممّا يتعسّر إن أمكن، وجب أن يكون بين الناس معاملةٌ وعدلٌ يحفظه شرعٌ، يفرضه شارعٌ متميّزٌ باستحقاق الطاعة؛ لاختصاصه بآياتٍ تدلّ على أنّها من عند ربّه، ووجب أن يكون للمحسن والمسيء جزاءٌ من عند القدير الخبير، فوجب معرفة المجازى والشارع. ومع المعرفة سببٌ حافظ للمعرفة، ففرضت عليهم العبادة المذكّرة للمعبود، وكرّرت عليهم ليستحفظ التذكير بالتكرير، حتّى استمرّت الدعوة إلى العدل المقيم لحياة النوع. ثمّ زيد لمستعمليها بعد النفع العظيم في الدنيا الأجرُ الجزيل في الأخرى. ثمّ زيد للعارفين من مستعمليها المنفعةُ الّتي خصّوا بها، فيما هم مولّون وجوههم شطره. فانظر إلى الحكمة، ثمّ الرحمة والنعمة؛ تلحظ جنابًا تبهرك عجائبه. ثمّ أقم واستقم» [ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج 3، ص 371].

هٰذا وتؤكّد الرؤية الإسلاميّة على الشريعة وقوانينها والطريقة ومناهجها، فالمعنويّة المطلوبة في هٰذه الرؤية مقيّدةٌ بالشريعة كما أنّها تنعكس فيها، ويمكن ملاحظة هٰذا التعاضد والتعامل متجسّدًا في شخص النبيّ الأكرم ﷺ، الّذي لم يغفل جانبه العباديّ حتّى تورّمت قدماه من القيام والوقوف بين يدي الله ﷻ، مع اهتمامه البالغ بالأمور الاجتماعيّة.

كما يمثّل الإمام عليٌّ عليه السلام نموذجًا آخر في هٰذا الجانب، بل إنّه مثالٌ أكمل لروحانيّة المعتقد الدينيّ الإسلاميّ ومعنويّته، فهو الّذي لا يبلغ شأوه أيّ عارفٍ عابدٍ، بحيث إنّه إذا انهمك وانغمر في العبادة والعشق الإلٰهيّ كان كأنّه ليس في هٰذا العالم، وكان مثالًا لمن «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقةً بالمحلّ الأعلى» [نهج البلاغة، الحكمة 147]، فهو مع الناس وليس مع الناس، عندما يكون مع الناس تكون روحه مرتبطةً بالمحلّ الأعلى [مطهري، الإنسان الكامل، ص 38]، هٰكذا هو حاله في الليل، وفي النهار لكأنّ هٰذا الإنسان غير ذٰلك، فهو مع أصحابه متفتّح الوجه، بشوشٌ، باسمٌ فرحٌ مرحٌ، حتّى ذمّ لذٰلك من قبل الجاهلين والمغرضين: «عجبًا لابن النابغة [يقصد عمرو بن العاص] يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابةً، وأنّي أمرؤٌ تلعابةٌ، أعافس وأمارس، لقد قال باطلًا ونطق آثمًا» [نهج البلاغة، 84]، وتجده في جميع الميادين الإنسانيّة، في البيت وأموره، وفي المجتمع وشوؤنه، وفي الحكم ودواليبه، وفي الحرب وغماره، وغيرها من المجالات.

فهٰذه وغيرها نماذج جليّةٌ كانت حاضرةً عن ذٰلك المزج بين مختلف الأبعاد البشريّة من دون إغفال البُعد المعنويّ.

فالإسلام إذن منع الرهبنة؛ لأنّها فرارٌ من الحياة ومتاعبها؛ ولذٰلك تعدّ

القوانين الأوروبّيّة الرهبان في حكم الأموات، والرهبنة موتًا اختياريًّا، والإسلام لا يريد للمتعبّد هٰذا الموت وذٰلك الفرار، ولٰكنّه يريد مؤمنًا نافعًا للناس، حيًّا في وسط الأحياء، حاميًا لهم من المضارّ، جالبًا لهم المنافع؛ إذ ليست العبادات الإسلاميّة سلبيّةً، بل هي إيجابيّةٌ: «هي المشاركة في رِفعة النوع الإنسانيّ، ولذٰلك يعدّ كلّ نفعٍ للأحياء صدقةٌ، فقد جاء في النصوص الدينيّة: «ما من مسلمٍ يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسانٌ أو دابّةٌ إلّا كتب له به صدقةٌ»، وليس معنى ذٰلك أن الروحانيّة في الإسلام لا وجود لها، بل لها المقام الأوّل، ففي الصوم والصلاة والحجّ روحانيّةٌ، بل كلّها روحانيٌّ، وفي الاعتكاف روحانيّةٌ، ولٰكنّ روحانيّة الإسلام ليست انقطاعًا عن الحياة والأحياء، بل هي مع ما فيها من سموٍّ نفسيٍّ وتجرّدٍ عن الجسم وأهوائه وشهواته، هي تحسينٌ للعلاقات الإنسانيّة» [محمد أبو زهرة، خاتم النبيّين ﷺ، ص 712]

إنّ الروحانيّة وفق الرؤية الإسلاميّة ممتدّةٌ لتشمل كافّة مناحي الحياة، بل إنّها تتمتدّ لأكثر من ذٰلك حينما يلاحَظ امتداد حياة الإنسان في الدنيا لتتّصل بحياته الأخرويّة، بحيث تتحوّل كلّ حياة الإنسان إلى ساحة عملٍ يرجو فيها أن يكون من الفائزين في الآخرة، فما الروحانيّة في الإسلام إلّا الشعور بخشية الله ومراقبته في كلّ ما يصدر عنّا من أعمالٍ وأقوالٍ، والسعي الّذي لا كلفة فيه إلّا مساعدة أهل القلّة والفاقة من قبل أهل اليسار، بدافع الرحمة والأخوّة في الخلق والإنسانيّة؛ وذٰلك من أجل رفع العوز وتأمين حدّ الكفاية لكلّ فردٍ بما يكفل التوازن الاقتصاديّ بين المسلمين، ويؤدّي إلى وجود مجتمعٍ لا تتصارع فيه الأهواء والنزوات، بل تتآلف فيه النفوس بوحيٍ من الإيمان بالله والالتزام بتعاليمه. [انظر: قاسم حبيب جابر، الإسلام بين البداوة والحضارة.. دراسةٌ في حضارة الإسلام الإنسانيّة، ص 337]

6ـ المعنويّة أمرٌ اختياريٌّ واكتسابيٌّ

إنّ المعنويّة في الرؤية الإسلاميّة أمرٌ اختياريٌّ واكتسابيٌّ، وتكمن أهمّيّة هٰذه المسألة إذا ما تمّ ملاحظة مختلف التصوّرات الموجودة حول أنماط الناس المختلفة ونظرتهم تجاه البُعد المعنويّ، فالبعض من الناس يتميّز بالمعنويّات ويهتمّ بها، والبعض الآخر ليس كذٰلك، ومن هنا فإنّ الرؤية الإسلاميّة تجاه هٰذه المسألة تتحدّد من خلال أمرين أساسيّين:

الأوّل: المعنويّة أمرٌ مشتركٌ بين جميع الناس.

الثاني: المعنويّة في متناول الإنسان ومن اختياره.

وليس المراد هنا أن للمعنويّة في بعض الحالات والمراتب جذبًا خاصًّا كما هو الأمر في العرفان؛ لأنّ هٰذه المسألة خارجةٌ عن محلّ البحث ـ وذٰلك أنّ هناك بعض الحالات الّتي يكون فيها جذبٌ خاصٌّ خارجٌ عن دائرة اختيار الإنسان ـ وإنّما المراد هو أنّ المعنويّات عمومًا من حيث الأساس تكون في متناول الإنسان واختياره، وبإمكانه من خلال السعي والمجاهدة أن يغدو معنويًّا ويقوّي معنويّاته، فمسألة الاشتراك والاختيار هي أساسٌ ومبدأٌ مهمٌّ للتعلّق بعالم الغيب وعالم القدس.

وعلى الرغم من أنّ مسألة المعنويّة والروحانيّة هي أمرٌ فطريٌّ مودعٌ في باطن الإنسان، بحيث لا يمكن زواله كما يرى البعض، إلّا أنّها ـ على أيّة حالٍ ـ تقبل الشدّة والضعف، ويمكن من خلال مجموعةٍ من العوامل والعناصر تقويتها أو تضعيفها، فتقوية البعد المعرفيّ والعقليّ والاستدلاليّ للإنسان، والعمل بالتكاليف الشرعيّة والأخلاقيّة، وتجنّب الشكّاكيّة والنسبيّة والمعاصي وغيرها، هي عوامل يؤدّي تحقّقها إلى تقوية البعد المعنويّ في الإنسان، كما أنّ غيابها يؤدّي إلى تضعيفه ووهنه. [خسروپناه، عوامل و موانع ترويج معنويّت، ص 60 ـ 70]

إنّ الفكر الإسلاميّ يهتمّ بالأمور المعنويّة ضمن ثلاثة معارف هي العرفان النظريّ والأخلاق والفقه. كما أنّ الأمور الاختياريّة، سواءٌ منها ما يرتبط بالفضائل والرذائل الأخلاقيّة الاختياريّة أو السلوكيّات الّتي تدور مدار الاختيار، والمعنويّة تؤكّد على ذٰلك وتدور مداره.

إنّ المعنويّة والميل نحو عالم الغيب والطهارة، ونتيجةً لكونها أمرًا اختياريًّا، تقع ضمن نطاق هٰذه المعارف والعلوم الثلاثة، أي: العرفان النظريّ والأخلاق والفقه، وجميع هٰذه العلوم والمعارف تهتمّ بالمعنويّة من زاويةٍ تختلف عن الزوايا الأخرى.

7ـ المعنويّة أمرٌ مقولٌ بالتشكيك ولها مراتب تشكيكيّةٌ

هٰذه المسألة غايةٌ في الأهمّيّة؛ وذٰلك أنّ المعنويّة يمكن أن تنتزع من مراتب ومستوياتٍ واضحةٍ ومتداولةٍ، وهي بالإمكان أن تبلغ درجاتٍ وقممًا عاليةً تنتهي إلى الفناء والشهود والقرب من الله ﷻ، وبالتالي تنفتح نوافذ الغيب وأبوابه أمام الإنسان، فتكون مشرَعةً بصورةٍ كاملةٍ في وجهه وتتوجّه الفيوضات القدسيّة للفرد نحو عالم الغيب بشكلٍ تامٍّ، وهٰذه المراتب التشكيكيّة للمعنويّة والتعلّق بعالم القدس مهمّةٌ جدًّا في الفكر الإسلاميّ، وخاصّةً في العرفان والأخلاق العمليّة، ففي الأخلاق العمليّة هنالك مراتب للمعنويّة وكيفيّة نيلها، وقد قسّمها العلماء وفق نظرةٍ عامّةٍ إلى عشرة مراتب أو مئة مرتبةٍ مفصّلةٍ، ووفق نظراتٍ أخرى أكثر تفصيلًا إلى ألف مرحلةٍ ودرجةٍ، وهٰذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على الظرافة والدقّة والاهتمام الخاصّ بالمعنويّة ودرجات السير والسلوك نحو عالم القدس الّذي تحظى به في الفكر الإسلاميّ، وقلّما توجد هٰذه المسألة في المذاهب والمدارس الأخرى. [مجموعةٌ من المؤلّفين، المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ، ص 227 ـ 329]

إن لهذا السلوك المعنويّ والسير في مدارج المعنويّة صورًا جذّابةً في التعاليم الدينيّة، وقد كانت هناك محاولاتٌ حثيثةٌ من أجل بلورة هٰذه اللذّات المعنويّة وفق قواعد وضوابط خاصّةٍ، ومن هنا فقد برزت هناك مسائل جميلةٌ ورائعةٌ حول هٰذه اللذّات المعنويّة.

8ـ المعنويّة ولزوم المنهجيّة

إن المعنويّة وطيّ مدراجها بحاجةٍ إلى منهجيّةٍ وأساليب ومسالك خاصّةٍ، وقد حُدّدت في الإسلام بأطرٍ وحدودٍ معيّنةٍ، فحتّى يصبح الإنسان المسلم سالكًا في المدارج المعنويّة ومكتسبًا للمعنويّات بصورةٍ فعليّةٍ، عليه أن يتّخذ لنفسه مناهج وأساليب محدّدةً، فالرياضة والتمارين والسلوك هي طرقٌ بيّنت من أجل الصيرورة المعنويّة والترقّي في درجاتها، وقد عيّن في الإسلام ضوابط وأطرًا وقواعد خاصّةً، فمثلًا لا يجب أن تنجرّ طرق المعنويّة إلى الإضرار بالإنسان ونفسه، كما لا يجب أن تخرجه عن إطار الإنسانيّة المتداول، وعن مختلف الأبعاد والنشاطات الاجتماعيّة والثقافيّة وغيرها، وهٰذه مسألةٌ مهمّةٌ؛ فليس كلّ رياضةٍ أو تمرينٍ مفيدًا للإنسان، بل هناك حدودٌ لها، ويجب أن لا تلحق الضرر به.

فالمعنويّة ليست أمرًا عفويًّا، وإنّما هي مؤطّرةٌ بالأحكام الشرعيّة، وما تقتضيه العبادات من نظرةٍ إلى الكون والحياة. فمن أراد سلوك الطريق القويم فعليه بالتمرّن، وأفضل تمرينٍ هو الصلاة والصوم. فالّذي يرغب في أن تنعكس أشعة الأسرار الإلٰهيّة في مرآة روحه، عليه أن لا يفكّر في غير الحقّ، ولا يذكر إلّا اسمه، وإلّا اجتمع غبار غير اسم الله على صفحة روحه، فتتعتّم على مرآتها ولا تعكس العالم ولا أسراره.

إنّ الّذي يتمرّن بمعونة العبادة سيحظى بروحٍ شفافةٍ لا تنعكس فيها إلّا

أشعّة نور الحقّ والإرادة الإلٰهيّة. وعندها ستحلّ للإنسان الكثير من الألغاز. فمن أراد أن يشرق "نور السماوات والأرض" على قلبه، يتوجّب عليه أن يتّجه نحو الله ﷻ، والسبيل إلى ذٰلك هو العبادة. [جوادي آملي، حقيقة الدين، ص 205]

9ـ العلاقة بين المعنويّة والولاية والإنسان الكامل

لا يخفى أهمّيّة مسألة الوليّ والإنسان الكامل في الفكر الإسلاميّ، والمعنويّة تكون صحيحةً إذا كان الإنسان الكامل مطروحًا باعتباره الإنسان الأسوة والنموذج والقدوة.. الإنسان الأسمى والأعلى.. الأسوة الّتي يحتذى بها؛ ومن هنا فإنّ الالتفات إلى هٰذه القدوة والأسوة، والتوجّه إلى باطنيّة ذٰلك النموذج يمكّـن من طيّ المدراج والدرجات، وهٰذه المسألة يؤكّدها الإسلام ويرى أنّه من دون معرفة الإنسان الكامل لا يمكن للإنسان أن يكون مسلمًا حقًّا. [مطهري، الإنسان الكامل، ص 6]

وعلى هٰذا الأساس فقد ذهب المتكلّمون إلى أنّ السفير الإلٰهيّ باعتباره النموذج الأكمل يتوجّب أنْ متميّزًا عن الغير؛ حتّى يتمكّـن من جلب ثقة الناس، بأن يكون بعيدًا عن رذائل الأخلاق، والحالات والصفات المنبوذة، وأن يغلب عليه بُعد المعنويّات. [لاهيجى، گوهر مراد، ص 358]

فالنبيّ الكريم ﷺ في الدين الإسلاميّ نموذجٌ للإنسان الكامل، وعليٌّ عليه السلام مثلًا نموذجٌ آخر له. [الصدر، فدك في التاريخ، ص 97 ـ 105]

وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام يأتي الاعتقاد بالإمام المهديّ عجل الله فرجه يأنّه إنسانٌ كاملٌ وأنه حاضر، وأنّه الواسطة في تجلّي نور الولاية في قلب الإنسان، وانعكاسه على مختلف أعماله وسلوكاته وتصرّفاته.

د ـ أضرار المعنويّة وفق الرؤية الإسلاميّة

إنّ المعنويّة إن لم تكن وفق منهجٍ سليمٍ، ولم تتّخذ الشكل المناسب، فإنّها تنجرّ إلى أضرارٍ وخيمةٍ وكبيرةٍ، فالعزلة والانطواء والزهد السلبيّ وغيرها نماذج لتلك الآفات والأضرار الّتي تتفشّى في المجتمعات وتعمل على تخريبها. والمعنويّة القائمة على العقلانيّة الإسلاميّة والمرفقة بالشريعة في الفكر الإسلاميّ ناظرةٌ إلى هٰذه الأضرار ومعالجةٌ لها كذٰلك.

لقد ذكرت أضرارٌ كثيرةٌ للمعنويّة المنحرفة، لا تقتصر على البعد العمليّ فحسب، بل تشمل حتّى فكر الإنسان وعقيدته ومتبنّياته. فالوقوع في الخرافة والضلال والشكّ والنسبيّة أو الاقتصار على الأبعاد المادّيّة للإنسان دون غيرها، أو الافراط في البعد الحسّيّ للأمور المعنويّة [الصدر، موجزٌ في أصول الدين، ص 280]، أو الانعزال أو عدم الفعاليّة أو التذبذب والاضطراب، كلّها أضرارٌ تصيب المعنويّة ممّا ليس لهٰذا المقال أن يناله بالتفصيل. [باباى رضا، آسيب شناسى معنويت، ص 114 ـ 132]

إنّ المعنويّة في الرؤية الإسلاميّة تبتعد عن الإفراط والتفريط، فلا يتمّ فيها التركيز على البعد الطبيعيّ بدرجةٍ كبيرةٍ، بحيث يتمّ تهميش بقيّة الأبعاد الأخرى الّتي يعيشها الإنسان، كما لا يغيب فيها الإنسان تمامًا عن الحياة المادّيّة وحاجاته الطبيعيّة، بحيث تصير خطًّا عامًّا وانحرافًا وشذوذًا.

إنّ الذنوب والمفاسد، والإلحاد والتقليد الأعمى للسلف، هي أقفال قلب الإنسان، إذ تحجبه عن التدبر في المعارف، فلا تنفذ إلى القلب المقفل، أمّا من سلكوا طريق المعنويّة الصحيح، سواءٌ أقدموا من الروم كصهيبٍ، أم جاءوا من إيران كسلمان، أم أتوا من الحبشة كبلالٍ، أم كانوا مقيمين في بلاد الحجاز كعمّارٍ وأبي ذرٍّ، فإنّهم سواسيةٌ في الانتفاع من هٰذه المعنويّة الّتي تنبعث من القرآن والوحي الإلٰهيّ؛ فالقرآن الكريم لا يختصّ بقبيلةٍ دون

أخرى أو بقومٍ دون قومٍ آخرين، بل هو شفاءٌ للآلام الروحيّة وعامل هدايةٍ ورحمةٍ للبشريّة كافّةً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ٥٧].

وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ الإنسان علاوةً على ضرورة حركته بأسلوبٍ فنّيٍّ ودقيقٍ، فإنّ عليه أن يتحلّى بنوعٍ من الحرّيّة، وليس معنى ذٰلك أن يتعدّى الخطوط الحمر المرسومة من قبل العقل والنقل، بل عليه أن يطوي الطريق السليم في خضمّ حركته الفكريّة من دون تجاوزها، فصحيحٌ أنّ الإنسان موجودٌ حرٌّ، لٰكنّه ليس منفلتًا متروك العنان. وهناك بونٌ واسعٌ بين الحرّيّة بالمعنى الإيجابيّ للكلمة والانفلات.

فمع أنّ عليًّا وأهل البيت عليهم السلام كانوا أحرارًا، بل لم يكن هناك أحدٌ ولن يكون أكثر حرّيّةً من الحسين بن عليٍّ عليه السلام، إلّا أنّهم لم يتعدّوا على حرمات الناس ولم يرضخوا للظلم، بل كانوا يحتاطون ويتقيّدون ويقيّدون أهلهم، كما أوصونا نحن أيضًا بذٰلك، أي أنّهم كانوا يعلمون بسلبيّة الانفلات وعدم التقيّد بأيّ نوعٍ من الحدود. [جوادي آملي، حقيقة الدين، ص 206]

الخاتمة

1ـ أنّ المعنويّة بوصفها أمرًا قدسيًّا يتجاوز نطاق المادّة والعالم المادّيّ، تقوم ـ وفق العقلانيّة الإسلاميّة ـ على مجموعةٍ من الأسس والمباني المنطقيّة والعقليّة.

2ـ تختلف المعنويّة في الفكر الإسلاميّ والدينيّ عن العقلانيّة في الثقافة الغربيّة والحداثيّة من حيث المنشأ والمنهج، وكذا الأهداف.

3ـ تتميّز المعنويّة بمجموعةٍ من الخصائص المهمة، والعقلانيّة الإسلاميّة مثلما تهتمّ بالمميّزات والخصائص الإيجابيّة للمعنويّة الّتي

تؤدّي إلى تحقّق الكمال الإنسانيّ من قبيل التنظيم والهيكليّة والمنهجيّة والشمول، فإنّها تُعنى بالأضرار الّتي يمكن أن تصيب الروحانيّة وتفضي بها إلى الشذوذ والانحراف والضياع.

4ـ لا تقتصر ميزات المعنويّة على تبيين الخصائص النظريّة فحسب، بل تقدّم النموذج والمصداق الخارجيّ لها، والمتمثل في الوليّ والإنسان الكامل.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

1. ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات، شرح الخواجة نصير الدين الطوسيّ، نشر البلاغة ـ قمّ، 1385 هـ ش.
2. ابن فهد الحلّيّ، أحمد بن محمد، عدّة الداعي ونجاح الساعي، دار الكتاب الاسلاميّ، ط 1، 1407 هـ.
3. آزاد علي إسماعيل، الدين والصحّة النفسيّة، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، هرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ط1، 2014 م.
4. إلهامي نيا، علي أصغر و ...، المعنويّة الإسلاميّة، مركز التحقيقات الإسلاميّة ـ قمّ، 1360 هـ ش.
5. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات ـ بيروت، ط 2، 2001 م.
6. إيراندوست، محمدحسين، چيستى معنويت و سير معناپذيرى آن در غرب ، مجلّه فلسفه دين، دوره 15، شماره 2، تابستان 1397 هـ ش.
7. ايزدپناه، عباس و ...، ضرورت نگاه تمدنى به مفهوم معنويت، مجلّه نقد و نظر، سال 19، عدد 3، پاييز 1393 هـ ش.
8. بابايي رضا، آسيب شناسى معنويت، مجله حصون، شماره 16، زمستان، 1387 هـ ش.
9. جميل قاسم، الروحانيّة في العلمانيّة المعاصرة، مجلّة الاستغراب، شتاء 2016 م.
10. جوادي آملي، عبد الله، حقيقة الدين، مؤسّسة العرفان للثقافة

الإسلاميّة ـ بغداد، ط 1، 2015 م.
11. جوادي آملي، عبد الله، دور المعاد في تربية الروح، مجلّة بقيّة الله، العدد 12، ربيع الأوّل 1413 هـ.
12. الجوهريّ، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح، دار العلم للملايين ـ بيروت، 1404 هـ.
13. حبيب فياض، التجديد الكلاميّ عن الشهيد الصدر، معهد المعارف الحكميّة ـ بيروت، ط 1، 2006 م.
14. خسروپناه، عبد الحسين، عوامل و موانع ترويج معنويّت، مجله حصون، شماره 16، زمستان، 1387 هـ ش.
15. الخمينيّ، روح الله، الآداب المعنويّة للصلاة، نشر مؤسسة نشر تراث الإمام الخمينيّ، طهران.
16. سيدحسين نصر، الإسلام ووعثاء الإنسان الغربيّ الحديث، ترجمة عمر نور الدين، آفاق للنشر، ط 1.
17. الصدر، محمدباقر، فدك في التاريخ، مركز الغدير للدراسات، ط 1، 1994 م.
18. الصدر، محمدباقر، موجزٌ في أصول الدين، تحقيق عبد الجبار الرفاعي، دار حبيب، ط 1، 1417 هـ.
19. الفيّوميّ، أحمد بن محمّد، المصباح المنير، دار الهجرة ـ قمّ، 1414 هـ.
20. قاسم حبيب جابر، الإسلام بين البداوة والحضارة.. دراسةٌ في حضارة الإسلام الإنسانيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت.
21. قاسمي، أعظم، تحليل و تبيين معرفت قدسى نزد سيدحسين نصر، حكمت معاصر ، سال سوم، بهار و تابستان 1391 ، شماره 1 .
22. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب بن إسحاق، الفروع من الكافي، دار الكتب

الإسلاميّة ـ طهران، ط 3، 1367 هـ ش.
23. لاهيجي، عبدالرزاق، گوهر مراد، نشر سايه ـ تهران، 1383 هـ ش.
24. مجموعةٌ من المؤلّفين، المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ، تعريب عبد الحسن بهبهاني پور، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، ط 1، 2012 م.
25. محمد أبو زهرة، خاتم النبيّين ﷺ، المؤتمر العالميّ الثالث للسيرة والسنّة النبويّة ـ قطر، 1400 هـ.
26. محمد رسول آهنگران، "عقلانيت و علم : معيار تمايز معنويت در اسلام از معنويت در ساير مكاتب"، پژوهش هاى علم و دين، سال هفتم، شماره اوّل، بهار و تابستان 1395 هـ ش.
27. محمّد عبد اللاوي، فلسفة الصدر، مؤسّسة دار الإسلام ـ لندن.
28. مصباح يزدي، محمدتقي، محاولةٌ للبحث عن العرفان الإسلاميّ، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقانيّ، دار نشر مؤسّسة الإمام الخمينيّ للتعليم والبحث ـ قم، ط 1، 2015 م.
29. مطهري، مرتضى، الإنسان الكامل، ترجمة صادق جعفر الخليلي، مؤسّسة البعثة ـ بيروت، ط 2، 1992 م.
30. مطهري، مرتضى، الإنسان الكامل، منشورات جامعة مدرّسي حوزة ـ قمّ، بلا تأريخ.
31. ملكيان، مصطفى، التديّن العقلانيّ، ترجمة عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، ط 1، 2012 م.
32. ملكيان، مصطفى، المعنويّة والمحبّة خلاصة كلّ الأديان، مجلة قضايا إسلاميّة معاصرة، السنة 15، العددان 47 و48، صيف وخريف، 2011 م.

33. المناويّ، زين الدين محمّد، التوقيف على مهمّات التعاريف، عالم الكتب ـ القاهرة، ط 1، 1990 م.
34. يزدانپناه، يد الله، العرفان النظريّ.. أصوله ومبادؤه، ترجمة علي عباس الموسوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ ـ بيروت، ط 1، 2014 م.